السبع المثانى

قال الله تعالي «ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم» (الحجر ٨٧) . وقال جل شأنه : «الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلي ذكر الله» (الزمر ٢٣) . تباينت أقوال المفسرين في المقصود بالسبع المثاني ، فقال القرطبي : إن ابا هريرة يروي حديثا عن النبي صلي الله عليه وسلم يقول فيه : «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» (يقصد بقوله «الحمد لله » فاتحة الكتاب كما يري النسفي بعد قليل).

ويروي القرطبي أيضا قول ابن عباس عن السبع المثاني : هي السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة معا ، لأنه ليس بينهما تسمية (أي بسملة) . وأنكر قوم هذا واعترضوا بالآية المذكورة في أول الكلام ، لأنها أنزلت بمكة ولم ينزل من الطوال شيء إذ ذاك . وقال آخرون إن المثاني في القرآن كله ، لقوله تعالي في سورة الزمر : «كتابا متشابها مثاني»وقيل له (أي للقرآن) مثاني لان الأنباء والقصص ثنيت فيه . وقيل إن المراد بالسبع المثاني أقسام القرآن من الأمر والنهي والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نعم وأنباء قرون . ثم يقول القرطبي : «وقد قدمنا في الفاتحة أنه ليس في تسميتها بالمثاني ما يمنع من تسمية غيرها بذلك . إلا أنه إذا ورد عن النبي صلي الله عليه وسلم وثبت عنه في شيء لايحتمل التأويل كان الوقوف عنده» . ولم يأت في تفسير آية الزمر بما يعارض ما قاله القرطبي هنا .

ويري النسفي في معني لفظ «مثاني» أنه جمع مثني بمعني مردد ومكرر إشارة لما ثني من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده ومواعظه . ويري أن المقصود في سورة الحجر فاتحة الكتاب . وأن اللفظ مأخوذ من التثنية وهي التكرار : لأن الفاتحة مما يتكرر في الصلاة . أو مأخوذ من الثناء لاشتمال سورة الفاتحة علي ما هو ثناء علي الله .

أما أبو حيان فيقول في البحر المحيط . «المثاني مثناة ، والمثني من كل شيء يثني أي يجعل أثنين من قولك ثنيت الشيء ثنيا أي عطفته وضممت إليه آخر . ومنه يقال لركبتي الدابة ومرفقيه «مثاني» لأنه يثني بالفخذ والعضد . ومثاني الوادي معاطفه ، فتقول سبعا من المثاني مفهوم سبعة أشياء من جنس الأشياء التي تثني وهذا مجمل ولاسبيل إلي تعيينه إلا بدليل منفصل».

نخرج من هذا الخلاف في الرأي بعدد من المعاني المقترحة للفظ المثاني علي النحو التالي :

١ – المعني الأول يشرح المقصود بالمثاني في ضوء العدد المذكور في الحديث الشريف ، فيجعل السبع المثاني فاتحة الكتاب التي تشتمل علي سبع آيات أولها البسملة ، ويسكت عما عطف علي السبع وهو القرآن العظيم .

٢ – التفسير الثاني يجمع بين مفهومي العدد والمعدود ويقرر أن المقصود هو السور السبع الطوال ، وعندما يلاحظ أن السورة السابعة وهي (الأنفال) لاتعد بين السور الطوال ضم إليها التوبة لأنها لم تتقدمها البسملة ، وعدهما معا سورة واحدة جعلها السابعة .

٣ – التفسير الثالث يجعل المقصود هو القرآن كله أخذا بقوله تعالي «كتابا متشابهاً مثاني» ويسكت عن دلالة العدد «سبعا» .

٤ – ورابع التفاسير يتناول ما يسميه «أقسام القرآن» ، يقصد أغراض النص القرآني من أمر ونهي وتبشير وإنذار وأمثال الخ ، وبذلك يشير إلي القرآن كله دون إشارة إلي العدد (سبعة) .

٥ – ويري صاحب التفسير الخامس أن «المثاني» مأخوذة من التثنية وهي التكرار ، وأن الفاتحة تتصل بالتكرار من جهتين : أنها قراءتها في الصلوات وأنها تشتمل علي تكرار ما يفيد الثناء علي الله .

٦ – أما التفسير السادس فيري أن «المثاني» جمع مثناة ، والمثني من كل شيء يثني أي جعل أثنين من قولك تثنيت الشيء ثنيا أي عطفته وضممت إليه آخر . فالسبع المثاني معناها سبعة أشياء من جنس ما يثني .

ومن مأثور القول بين مفسري القرآن الكريم أن «القرآن يفسر بعضه بعضا» فإذا اراد امرء أن يفهم مقاصد القرآن فعليه أن ينظر إلي التناص بين نصوصه لأن ما يقوم من علاقة بين هذه النصوص من شأنه أن يكشف بواسطة ما بها من اتفاق عن مقاصد النص الحاضر في ضوء النص الآخر». ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» (النساء ٨٢) . وإذا رجعنا إلي ما تقدم من إشارة إلي آيتي الحجر ٨٧ والزمر ٢٣ وجدنا القرآن مذكورا في كلتيهما إما بالاسم (القرآن العظيم) وإما بالوصف (كتابا متشابها) ، وأن العدد (سبعا من المثاني) ذكر في آية الحجر دون آية الزمر . أما الوصف بالمثاني فقد ورد في كلتا الآيتين .

دعنا إذن نستعن بمبدأ التناص في فهم المقصود بالمثاني وهي كما قال النسفي جمع مثني . يقول الله سبحانه وتعالي : «فانحكوا ما طاب لكم من النساء مثني وثلاث ورباع» (النساء ٣) ، أي فليتخذ كل منكم امرأتين يكون نكاحهما علي طريقة «المثاني» أي كونهما (أثنتين أثنتين) . فإذا وظفنا فكرة المثنوية هذه في محاولة فهمنا للنص الذي بين أيدينا كان من المطلوب أن ننظر إلي كيفية وجودها في النص القرآني . دعنا أولا نبحث عن معني المثاني منسوباً إلي القرآن في مجمله ثم ننظر إليه بعد ذلك في السبع المثاني بخصوصها .

ينبغي لهذه المثاني في القرآن كله أن تكون أزواجاً من المفاهيم بين عنصري كل زوج منها صلة خاصة إيجابية أو سلبية . ويمكن أن نضرب مثلا لهذه الأزواج من المفاهيم علي النحو التالي :

الإنس والجن	السماء والأرض	الجنة والنار
الإيمان والكفر	الطاعة والمعصية	الخير والشر

الصدق والكذب	الإخلاص والنفاق	الوفاء والغدر
النور والظلام	الحياة والموت	الدنيا والآخرة
أصحاب اليمين		
وأصحاب الشمال	الشكر والجحود	السلم والحرب
البيع والشراء	القول والفعل	الله والعباد
الألوهية والربوبية		

وهلم جرا مما يخضع لتعليم القرآن وللبشارة والإنذار بما يكون في الحياة الدنيا والآخرة من قول أو عمل ، مثل :

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ » (الأنعام ١٢٨) .

«تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ» (الإسراء ٤٤) .

«إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمُجْرِمِينَ» (المدثر ٣٨-٤٠).

«وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» (آل عمران ١٤٥).

«فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ» (الكهف ٢٩) .

«فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا» (الفرقان ٥٢).

«« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى» (البقرة ٢٦٣).

« قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» (النمل ٢٧) .

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ» (الحديد ١٣) .

«كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما» (التحريم ١٠) .

«فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ» (البقرة ١٧) .

« كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون» (البقرة ٧٣).

«من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة» (النساء ١٣٤) .

« فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » (الواقعة ٨ - ٩) .

« فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» (البقرة ١٥٢) .

«فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم» (النساء ٩١) .

«وأحل الله البيع وحرم الربا» (البقرة ٢٧٥) .

«لم تقولون ما لا تفعلون» (الصف ٢) .

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (الذاريات ٥٦) .

وما كل ذلك إلا نماذج من المثاني وأمثلة من الشواهد القرآنية توخينا فيها أن تكون قصيرة قدر الإمكان تجنبا للإطالة . وهذا الذي مضى شرح لما يفهمه المرء من معني وجود المثاني في القرآن العظيم كله وهو الكتاب المتشابه المشتمل علي هذه المثاني .

دعنا ننظر الآن في المقصود بالسبع المثاني التي اختصت بها سورة الفاتحة ، وليكن الحديث الذي رواه القرعبي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلي الله عليه وسلم بقوله : «الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني» موضع القبول لقوله تعالي : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» (الحشر ٧) ، مع العلم بأن عبارة «الحمد لله» هي أول الفاتحة بعد البسملة . ومن ثم تكون هي أول فاتحة الكتاب . فما المثاني التي اشتملت عليها الفاتحة ؟ وكيف تحققت المثنوية بين ما تشير إليه من مقاصد ؟ قال قوم إن الفاتحة سبع آيات أولها البسملة ، أي أن السبع المثاني هي الآيات السبع في سورة الفاتحة ، وأن البسملة هي إحدي هذه المثاني .وعندما نقرأ هذا الكلام نتساءل عن السبب الذي جعل البسملة في

رأيه إحدي المثاني في الفاتحة فعدها من آياتها ولم يجعلها كذلك في بقية سور القرآن الكريم . ويكاد هذا التساؤل يحملنا علي رفض أن تكون سورة الفاتحة مشتملة علي السبع المثاني حتي نتذكر الحديث الشريف الذي دعانا منذ قليل إلي قبول كونها هي المقصودة . عندئذ نبدأ التماس طريق آخر نصل من خلاله إلي ما في سورة الفاتحة من المثاني ، ثم ما الذي يرشح هذه العناصر من سورة الفاتحة لقبول كونها من المثاني ، وكيف يتحقق فيها العدد سبعة بعد الشك في أن البسملة ليست من آيات الفاتحة .

١ – لفظ الجلالة :

إن أول ما نصادفه عند قراءة الفاتحة هو «الحمد للّه» ، ولفظ الجلالة من بين الأسماء الحسني هو الوحيد المرتجل أي الذي لم ينقل إلي العلمية بعد أن كان مصدراً أو صفة كغيره من الأسماء الحسني . فهو اسم اللّه الأعظم الذي يدل علي الألوهية كما في «اللَّهُ لا إله إلاَّ هُوَ» (البقرة ٢٥٥) ، كما يدل في الوقت ذاته علي الربوبية كما في «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ» (الأنعام ١٠٢) . وإذا كان لفظ الجلالة بكونه الاسم الأعظم دالا علي الألوهية والربوبية في وقت معا فلابد من أن ينطوي علي مثنوية في معناه وإن كان مفرداً في لفظه . وهذا الإفراد في اللفظ يجعله واحداً فقط من ألفاظ المثنويات السبع . كما أن دلالة لفظ الجلالة علي الألوهية والربوبية في وقت معا يتجلي في صحة وصفه في البسملة بلفظي «الرحمن» و «الرحيم» مع إختلاف معني كل منهما عن معني الآخر من حيث الدلالة علي هذين المفهومين (الألوهية والربوبية) كما سنري بعد قليل إن شاء اللّه . والدليل علي أن لفظ الجلالة يدل علي هذين المعنيين (الألوهية والربوبية) قوله تعالي: «وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ وما بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ» (النحل ٥١ – ٥٣) . فاللّه سبحانه في أول الآية إله واحد مستحق للعبادة وفي آخرها رب منعم ومستعان . وإسمه واحد لم يتغير في الحالتين .

وعلينا بعد ذلك أن نلقي مزيداً من الضوء علي الاسم . قلنا قبل ذلك إن أول ما نصادفه من سورة الفاتحة هو «الحمد لله» ، فما المقصود بالحمد وما الفرق بينه وبين الشكر ؟ المعروف أن اللغة العربية ربما أعادت ترتيب أصول إحدي الكلمات وابقت علي المعني دون تغيير ، وهذا ما يسميه ابن جني في الخصائص «الاشتقاق الأكبر ». وفي رأيي أن الحمد والمدح من قبيل هذا الاشتقاق . ووجه إنتمائهما إلي أصل واحد أن الحمد كالمدح مبعثة الاحترام دون أن يكون لدي المادح إحساس بما سوي استحقاق الممدوح ، وكذلك استحقاق المحمود للحمد ، ويمكن أن يقال مثل ذلك في لفظي «الرب» و «البر» بفتح الباء . أما الشكر فعرفان بالفضل واعتراف بالنعمة . ولذلك يصح أن يقال : «اللهم لك الحمد بما تعاليت ولك الشكر بما أوليت» نحمدك بجميع محامدك ما علمنا منها وما لم نعلم ونشكرك بجميع نعمك ما علمنا منها وما لم نعلم وإذا كان رب الجلال كما سبق أن ذكرنا مستحقا للحمد بما تعالي وللشكر بما أنعم فإن لفظ الجلالة من شأنه أن يقبل الأمرين معا . فإذا قال العبد يااللّه فقد نادي المستحق للحمد وللشكر معا . وهو الذي يعاقب المذنب ويثيب المحسن: «قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً» (الأحزاب ١٧) . هذه أولي المثاني السبع ، ويمكن بيانها كما يلي :

الله	
إله معبود	رب مستعان

ولكل من الأولوهية والربيوبية بعد ذلك ثلاث مثان ، وكل ذلك مما اشتملت عليه فاتحة الكتاب . وبيان ذلك كما يلي :

مثاني الألوهية	مثاني الربوبية
مالك يوم الدين	رب العالمين
الرحمن	الرحيم
إياك نعبد	إياك نستعين

وفيما يلي بيان بالأسس التي دعت إلي هذا الفهم وذلك من جهتين :

اختيار نص فاتحة الكتاب بالذات .

بيان سبب اختيار المثاني الست التي تبلغ سبعا بإضافة لفظ الجلالة .

٢ – مالك يوم الدين :

هذه المثناة تقف في مجال الألوهية بإزاء مثناة «رب العالمين» التي تنتمي إلي الربوبية ، وذلك لما بينهما من اختلاف المواقف بين الدنيا والآخرة، ومن اختلاف الوظيفة بين مالك أو ملك وبين رعاية رب أو عون مستعان . فمالك يوم الدين صفة إلهية ، لأنها تشير إلي معني العبادة التي تأتي مثوبتها يوم الدين ، ولأنها تتصل بما في ذلك اليوم من أيام الآخرة من ثواب أو عقاب . وهناك قراءة أخري يتحول بها لفظ «مالك» إلي ملك» «لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الْحَمْدُ وهُوَ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (التغابن –١) ، وهو المهيمن الذي يدخل عباده الجنة إن شاء والنار إن أراد . ولا يمكن أن تكون هناك شفاعة في هذا الموقف إلا بإذن الله . ثم إنه في هذا اليوم «إِذَا وقعت الْواقِعَةُ لَيْسَ لِوقْعَتِها كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا وبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَاءً

مُنبَثًّا وكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثلاثةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » (الواقعة ١ - ١٢) . كل ذلك بإرادة مالك يوم الدين ، يوم يحشر الله إليه وفداً ويسوق المجرمين إلي جهنم وردا .

٣ - رب العالمين :

وفي مقابل مثناة «مالك يوم الدين» تقف مثناة «رب العالمين» . والرب هو الراعي وهو المستعان كما سنري فيما بعد . وفي الحديث الشريف «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ». والراعي يمنح الرعاية للرعية كما يمنح الرب الولاية والكفالة . وقد قال يوسف عليه السلام حين دعي إلي خيانة العزيز في أهله : «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» (يوسف ٢٣) ، فجعل العزيز ربه أي كافله الذي رباه وأحسن رعايته منذ طفولته وإلي شرخ شبابه. وفي إطار هذا الفهم قال يوسف أيضاً لأحد الفتيين عند خروج الفتي من السجن: « أذكرني عند ربك» (يوسف٢٤) وفي سورة آل عمران نجد «أولي الألباب» يدعون ربهم بذكر لفظ الرب فيقولون (آل عمران ١٩١ - ١٩٤) :

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (١٩١) .

«رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ»(١٩٢).

«رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا »(١٩٣).

«رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ» (١٩٣).

« رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (١٩٤) .

وقد استعمل أولو الألباب هنا لفظ «ربنا» وكان يمكنهم أن يقولوا «اللهم» في كل موضع ذكر فيه الرب في هذه الآيات (لأن لفظ الجلالة كما قلنا من قبل صالح للدلالة علي المعنيين في وقت معا) . ويتضح من ذلك أن الربوبية صفة المستعان كما كانت الألوهية صفة المعبود.

٤ – الرحمن :

في لفظ «الرحمن» دلالة علي الألوهية كما يؤخذ من مبدأ «القرآن يفسر بعضه بعضا » وهو المبدأ الذي سمي في الدراسات الحديثة «التناص» . ومع أن مفسري القرآن الكريم هم الذين صاغوا هذا المبدأ في صورته التراثية لم يحسنوا استعماله في فهم لفظ «الرحمن » حتي في بعض التفاسير التي أعلنت عن نفسها أنها تفسر القرآن بالقرآن ، مثل تفسير «أضواء البيان» للشنقيطي .

رأي بعض المفسرين أن «الرحمن» يتفق في المعني مع «الرحيم» علي نحو ما يتفق لفظاً «ندمان» و «نديم» . وفوق آخرون بينهما في المعني إذ رأوا في «الرحمن » مبالغة ليست في «الرحيم» ، أو أن الرحمن يرحم الخلق جميعاً علي حين يرحم الرحيم المؤمنين دون غيرهم . واكتفي البعض بملاحظة أن «الرحمن» يسمي به الله وأن «الرحيم» يوصف به غير الله أيضا .

أما ما نراه وجيها في تحديد معني «الرحمن» فيؤخذ من قوله تعالي : «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» (الزخرف ٤٥) . وإن أصدق ما يحدد معناه آية الكرسي التي تقول : «اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ من ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » (البقرة ٢٥٥) ومن تحريف معني «الرحمن » أن مسيلمة الكذاب كان يسمي نفسه (رحمن اليمامة) أي أنه جعل نفسه قيوما علي الإقليم المذكور .

وإذا نظرنا إلي الآيات القرآنية الكريمة التي يرد فيها لفظ «الرحمن» فإننا سنجد سياق النص وسياق الموقف كليهما يؤديان إلي أن للرحمن دلالة علي الألوهية تضعه بإزاء لفظ الرحيم ودلالته علي الربوبية . وإلي القارىء الكريم جملة هذه الآيات كما ترد مفرقة في سور القرآن الكريم : « قُلِ ادْعُوا

اللَّهَ أو ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً » (الإسراء ١١٠) ، الرحمن تجب عبادته مثله كمثل دلالة لفظ الجلاله (الله) .

١ - « قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا » (مريم ١٨) . لم تستعذ بالرحيم .

٢ - « يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا » (مريم ٤٤) الطاعة واجبة للرحمن .

٣ - « إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ» (مريم ٤٥) . الرحمن يعذب من عصاه وإن اشتق اسمه من الأصول الثلاثة للرحمة .

٤ - «قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا» (مريم ٧٥) . الرحمن يمهل الضالين قبل تعذيبهم .

٥ - «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا». (مريم ٨٥) . يحشر المتقون إلي الرحمن .

٦ - «لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» (مريم ٨٧).

٧ - « وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا» (مريم٩٢) . تعالي الله عن ذلك .

٨ - « إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا» (مريم ٩٣) . للرحمن عباد خاضعون له ، ولاينسب العباد إلي غير الرحمن (فيما عدا ما عبّد من أسماء الأعلام).

٩ - «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » (مريم ٩٦) . الرحمن يملك الثواب والعقاب .

١٠ - «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى» (طه ٥) . للرحمن عرش وله هيمنة.

١١ - «وخشعت الأصوات للرَّحْمنِ فلا تسمعُ إلاَّ همْسا» (طه ١٠٨).

١٢ - « يومئذٍ لاَ تنفعُ الشَّفاعةُ إلاَّ مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمنُ ورَضِيَ لَهُ قولاً» (طه ١٠٩).

١٣ - «قلْ من يكلؤكُم باللَّيلِ والنَّهارِ من الرَّحْمن» (الأنبياء ٤٢) . لايمكن لأحد أن يكلأ أحدا من بأس الرحمن .

١٤ - «المُلْكُ يومئذٍ الحقُّ للرَّحْمنِ » (الفرقان ٢٦) . في الفاتحة : «مالك يوم الدين» ومنذ قليل جاء ذكر عرشه .

١٥ - «وعبادُ الرَّحْمنِ الَّذين يمْشُونَ علَى الأرْضِ هوْنًا» (الفرقان ٦٣) انظر رقم ٨ .

١٦ - «إنَّما تُنذرُ مَنِ اتَّبعَ الذِّكْر وخَشِيَ الرَّحْمنَ بالْغيْب » (يس ١١). الرحمن يخشى غضبه .

١٧ - «إن يُردْنِ الرَّحْمنُ بضُرٍّ لا تُغْنِ عنِّي شَفاعَتُهمْ شيْئًا » (يس ٢٣) انظر ١٣ .

١٨ - «وجعلُوا الْملائكةَ الَّذينَ هُمْ عبادُ الرَّحْمنِ إناثًا» (الزخرف ١٩) انظر ٧ .

١٩ - «وقالُوا لوْ شاء الرَّحْمنُ ما عبدْناهُم» (الزخرف ٢٠) .

٢٠ - « مَّا ترىٰ في خَلْقِ الرَّحْمنِ من تفاوُتٍ» (الملك ٣) .

٢١ - « أوَ لَمْ يروْاْ إلى الطَّيْرِ فوْقَهُمْ صافَّاتٍ ويَقْبضْنَ ما يُمْسكُهُنَّ إلاَّ الرَّحْمنُ» (الملك ١٩).

٢٢ - «يوْم يقُومُ الرُّوحُ والْملائكَةُ صفًّا لاَّ يتكلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحْمنُ وقَالَ صوابًا» (النبأ ٣٨).

ومع ذلك قد يأتي «الرحمن» خبرا عن لفظ «رب» في موقف يتطلب ذلك، وقد يرد صفة للرب مع وجود خبر مناسب للربوبية . فمن الأول ماقاله هارون لبني إسرائيل عندما عبدوا العجل من دون الله : «يا قوم إنما فُتنتم به

وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي» (طه ٩٠) أي إن ربكم إله قيوم يهيمن علي الخلق كله ، فكيف تعبدون من دونه عجلا؟ ومن الثاني قوله تعالي: «وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» (الأنبياء ١١٢) . أي وربنا المهيمن المعبود هو المستعان علي ماتقولون . فوصف المبتدأ بأنه «الرحمن» أشار إلي نوع الاستعانة التي ذكرت في الخبر ، أي أن الخبر مناسب للمبتدأ وموصوف بما يجعل الاستعانة به موضع ثقة ، ولاسيما بعد قوله تعالي : «قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ...» (الأنبياء ١٠٨ - ١١٢) . فلوصف المبتدأ بلفظ «الرحمن» ما يبرره . وقد يرد «الرحمن» في موضع يصلح لكل من الاسمين لأن السياق يجعله كذلك ، كما في قوله تعالي : «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا» (الملك ٢٩) ، فالإيمان بالإله والتوكل علي الرب .

٥ - الرحيم :

والرحيم من مثاني الربوبية كما تشهد آيات القرآن أيضا . فإذا كانت الربوبية رعاية للعباد وإنعاما عليهم ورأفة بهم وعطاء يستحق الشكر كما استحق الرحمن الحمد فإن هذا الاسم من أسماء اللّه سبحانه يأتي مقترنا بما يحدد له هذه الظلال المذكورة من معاني الربوبية : وهي الرعاية والإنعام والرأفة ... إلخ . فالرحيم تواب ورءوف وغفور وودود ومستعان وبر وعزيز الخ كما تشهد الآيات التالية :

١ - «فتلقي آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم» (البقرة ٣٧) .

٢ - «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (البقرة ١٤٣) .

٣ - «فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (البقرة ١٩٢) .

٤ – «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود» (هود ٩٠).

٥ – «سلام قولاً من رب رحيم» (يس ٥٨) .

٦ – « إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم» (الطور ٢٨) .

٧ – «وإن ربك لهو العزيز الرحيم» (الشعراء ٩) .

بما تقدم يتضح أن لفظي «الرحمن» و «الرحيم» يختلفان في المعني وإن كانا فرعين في دلالتهما علي لفظ الجلالة ، فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم في قوة قولنا : بسم الله الإله الرب ، أي بسم الله المعبود المستعان (أخذنا من قوله : «إياك نعبد وإياك نستعين » . وهكذا يبقي من المثاني السبع اثنتان إحداهما يخاطب بها الإله ، وهي «إياك نعبد» والأخري يخاطب بها الرب ، وهي «إياك نستعين » . وعلي أي حال : «الدعاء مخ العبادة»، كما يروي عن النبي صلي الله عليه وسلم .

٦ – إياك نعبد :

يقول الله تعالي لموسي عليه السلام : «إنني أنا الله لا إله إلاَّ أنا فاعْبُدْني وأقم الصَّلاةَ لذكْري» (طه ١٤) . وهذا الأمر بالعبادة تقدمه ذكر الألوهية لتكون مقدمة لطلب العبادة كما يستفاد من الفاء في «فاعبدني » ؛ أي لأنه «لا إله إلا أنا» . وإنما كان القول بأن العبادة إنما تتحقق بإقامة الصلاة لذكر الله سبحانه وتعالي لأن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي لا رخصة بتركها . أما الزكاة والحج والصوم ففيها رخصة لمن لا يستطيع . وإذا نظرنا إلي قوله سبحانه : «إياك نعبد» وجدنا تقديم المفعول «إياك» مفيداً للدلالة علي معني : (لامعبود إلا أنت) . فالعبادة مقصورة علي الله جل جلاله .

٧ – إياك نستعين :

ويقابل العبادة ودلالتها علي معني الألوهية أن الاستعانة تدل علي أن المستعان رب ينعم علي عباده . فما أكثر ما يبدأ الدعاء بنداء الرب كما رأينا عند الكلام عن مثناة «رب العالمين» . وقد يبدأ الدعاء بعبارة «اللهم»

لأن لفظ الجلالة كما سبق أن ذكرنا يتضمن مفهومي الألوهية والربوبية في وقت معا . وواضح أن الدعاء استعانة بالله رب العالين ، وأن الذي يقرأ الفاتحة في الصلاة إنما يدعو ربه أثناء العبادة ، ولاصلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب . أما موضوع الاستعانة المطلوبة في قراءة الفاتحة فيبدو في قوله تعالي بعد ما سبق : «اهدنا الصراط المستقيم ... ألخ » . ولقد سبقت الإشارة إلي الفرق بين الحمد والشكر ، ونود أن نشير إلي فرق مشابه لذلك بين الجلال والإكرام . فينسب الحمد والجلال إلي الإله المعبود ، ويتجه الشكر والإكرام إلي الرب المنعم سبحانه وتعالي .

هكذا تكون المثاني (وهي الألفاظ التي سبق ذكرها) سبعا ولكن المثنويات اربع بيانها كما يلي :

١ - مثنوية بين الألوهية والربوبية تكمن في لفظ الجلالة (الله) .

٢ - ومثنوية بين مالك يوم الدين من جهة ورب العالمين من جهة أخري.

٣ - وثالثة بين الرحمن والرحيم .

٤ - أما الرابعة فبين «إياك نعبد» و «إياك نستعين».

أرجو أن يكون اجتهادي صائباً وأسأل الله التوفيق .